1 ـ دراسات في اللغة والأدب والحضارة

للدكتور محمود الربداوي

بقلم : علي القاسمي

يتألف هذا الكتاب من نخبة مختارة من المقالات التي تجمع بين الاسلوب الادبي الشائق والبحث اللغوي الموضوعي ، كانت في الاصل محاضرات القاها المؤلف في عدد من الجامعات العربية ، او مقالات اذاعها من محطة الاذاعة السورية ، او كلمات نشرتها الصحف الدورية ، هدفها تتبع حركة اللغة العربية في انطلاقها من موطنها الاول ، جزيرة العرب ، الى انحاء المعمورة ، واستقراء تاثيرها في حضارات الشعوب المختلفة ولغاتها . ويتجلى هذا الهدف في عناوين معظم المقالات مثل : اللغة العربية تدخل المحافل الدولية ، ودخول اللغة العربية الى منظمة اليونسكو ، ورحلة الكلمة العربية في العالم القديم : انتشار اللغة العربية في مصر وليبيا ـــ انتشار اللغة العربية في تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا والسنغال وصراعها مع اللغات المحلية ـــ انتقال اللغة العربية الى شمالي افريقيا بوساطة قبائل بني هلال ، وعبور اللغة العربية مضيق جبل طارق ، وفضل الثقافة العربية على الثقافة العبرية ولغتها وآدابها ، وترجمات القرآن وآثارها في اللغات الاوربية ، وما خلفته العربية في المعجم الاسباني البرتغالي ، وقصة (الفتية المغرورين) او مقدمة رحلة الكلمة العربية الى امريكا ، ورحلة الكلمة العربية الى انكلترة ، والحضارة العربية في جزيرة صقلية ، وغزو اللغة العربية لجنوبي ايطاليا ، وتاثير الفكر العربي على الفكر الايطالي ، وتسلل العربية الى المعجم الفرنسي ، وتاثير الادب العربي في الادب الفرنسي ، وغيرها ، واذا ما علمنا ان القسم الثاني من الكتاب سيتناول سياحة اللغة العربية في آسيا الصغرى وبادان الشرق الاوسط وتفاعلها مع حضارات شعوب العرق الاصفر ولغاتها ، تاكد لنا ان مقالات الكتاب اللؤلؤية تنتظم في عقد واحد يمكن ان يسمى بـ « عالمية اللغة العربية » وان الكتاب يستحق الاطراء لانه اول كتاب ـــ على ما نعلم ـــ جمع بين دفتيه الحقائق المتعلقة بانتشار اللغة العربية في العالم . وحينما يتطرق المؤلف الى الحديث عن اكتشاف العرب لامريكا قديما او هجرتهم اليها حديثا او انتقالهم الى

اصقاع مختلفة من المعمورة فان همه الاساسى هو رحلة الكلمة العربية وانتشارها وتاثيرها فى الحضارات الانسانية يقول المؤلف فى هذا ما نصه :

« واعود فاكرر القول اننى عندما اتحدث عن المهجريين وعن الادب المهجرى ، فاننى لا اتحدث عن اسباب الهجرة وعواملها ، ولا عن وسائل الهجرة واشكالها ، ولن استفيض فى وصف مقومات الادب المهجرى وخصائصه ، وان اشغل قلمى فى رصد ميزات هذا الادب وتطوره ، لان هذا الصنيع موكول الى الكتب المدرسية والتعليمية ، وانما مهمتى هنا تنحصر فى رصد رحلة الانسان العربى حامل الكلمة العربية ، وباذر هذه الكلمة فى تربة العالم الجديد ، ثم ارصده وهو يتعهد هذا البذار بالرعاية والعناية ، حتى غدت الكلمة العربية لغة عربية ، وافرخت اللغة شعرا ونثرا وخطابة وقصة ومقالة ، وجملت كل هذه الفنون الادبية الفكر العربى وثقافته وحضارته الى ارض العالم الجديد » .

ولا يتضح من هذا النص هدف الكاتب والكتاب فحسب ، وانما جزالة اسلوب المؤلف وسلاسته ايضا.

ومن ينعم النظر ويطيل التامل فى مادة الكتاب يجد ان كثيرا منها يقع فى مجال التاثيل (دراسة اصل الكلمات وتاريخها) ، وهو احد فروع علم اللغة لا يجد اقبالا واهتماما من لدن اللغويين المحدثين ولا يكتب فيه كثيرا الا ما يرد من اشارات فى المعاجم تصف اللفظ بانه « مولد » او « معرب » او « محدث » . وما كتبه عدد قليل من اللغويين العرب كالاستاذ عبد الحق فاضل الذى نشر سلسلة من المقالات تحت عنوان (دخيل ام اثيل) فى مجلة اللسان العربى ، والاستاذ عبد العزيز بنعبد الله فى مقالاته الموسومة بـ (وحدة اللغات) التى تنشر فى المجلة ذاتها .

ومن امثلة الدراسات التاثيلية التى يزخر بها كتاب الدكتور الربداوى (قصة القهوة) التى يفرد لها فصلا خاصا تبين كيف ان لفظ (القهوة) كان يطلق على الخمرة فى العصر الجاهلى ، وقد استعمله الاسلاميون والامويون والعباسيون بهذا المعنى . وسميت القهوة بالقهوة لانها تقهى شاربها عن الطعام اى تذهب بشهوته وتصده . ثم يوضح ان (البن) الذى يستخرج منه شراب يسمى القهوة كانت تزرع شجرته فى اليمن . ويروى ان رئيس احد الاديرة بالجزيرة العربية هو الذى استدل على ثمرة البن حينما لاحظ ان الماعز الذى يرعى اوراق تلك الشجرة تظهر عليه مخايل النشاط والمراح ، فخطر بباله ان يشرب نقيع اوراق تلك الشجرة فشعر بشىء من المرح والارتياح ، فعاودها وادمنها . وشاع احتساء القهوة فى اوساط المتصوفة للاستعانة بشربها على السهر والعبادة . وما ان نصل الى القرن التاسع الهجرى حتى نسمع بان تعاطى القهوة اصبح شائعا فى كل مناطق اليمن وعدن ، ثم انتقل الى بلاد الحجاز فالشام فمصر فسائر البلاد العربية . وزحفت القهوة الى عاصمة الخلافة العثمانية فى اسطنبول حوالى سنة 1962 ولاسباب سياسية ودينية منع تعاطيها واغلقت المحال التى كانت تقدمها . ونقل الاتراك القهوة الى فيينا فى النمسا ، وكانوا يسمونها (كافيه) ومنها جاء اسم (كافى) فى اللغات ، والاتراك يشربونها من دون مزجها بشىء آخر ، ولذلك يطلق الاوربيون على هذا النوع من القهوة اسم (القهوة التركية) . وعندما شاعت فى اوربا لقيت معارضة من رجال الكنيسة حتى عمدها البابا كلمنت الثالث . ثم يروى المؤلف قصة انتقال شجرة (البن) الى القارة الامريكية وهى قصة تطبع مغامرة ورومانسية وطرافة .

وينتهى المؤلف الى مبدأ تاثيلى مفاده انه اذا اختصت منطقة بنبات معين او حيوان بذاته ، وانتقل هذا النبات او الحيوان الى حضارات اخرى فان اهلها يقترضون اسم ذلك النبات او الحيوان من لغته الاصلية ويضيفونه الى لغتهم حتى يصبح جزءا منها . ومن امثلة ذلك لفظا (القهوة) و (الجمل) اللذان دخلا معظم اللغات الاوربية من اللغة العربية . ولكى يقنع المؤلف القارىء العربى بصواب هذا المبدا يضرب امثلة كثيرة لالفاظ اجنبية دخلت اللغة العربية كالبرتقال والتبغ والبندورة . يقول المؤلف فى عرضه لقصة النبات الاخير اللغوية ما يأتى :

« و (البندورة) نبات امريكى الموطن ، اصله من جمهورية البيرو ، ويسمونه فى الاسبانية (بوما دورا) وترجمتها الحرفية (التفاح الذهبى) اما فى اللغتين الفرنسية والانكليزية فيطلقون عليه اسم (طماط) ومن هنا اخذ اهل المغرب العربى التسمية فقالوا (طماطش) واخذها المصريون فقالوا (طماطم) كما اردفوها باللفظة التركية (اوطه) . اما فى بلاد الشام فاحتفظوا بالتسمية الامريكية الاسبانية (التفاح الذهبى) (بوما دورا) ثم قلبوا الميم نونا لقرب المخرجين فقالوا (بندورة) ، واعتقد انك لن تسألنى بعد هذا الشرح عن تعريب (كلمة) (بندورة) وامثالها

من الفاظ اللغات الاعجمية التي تفد الى بلادنا حاملة معها اسمها ، فنضطر الى التعامل به من دون ان يكلف الناس انفسهم عناء التفكير في ايجاد تسمية عربية لهذا المسمى ، ومثل هذا كثير بين اللغات » .

ان كتاب « دراسات في اللغة والادب والحضارة »

يحمل في طياته كثيرا من المعلومات اللغوية والادبية والحضارية الطريفة التي قدمت الى القارىء المثقف بأسلوب شائق ممتع سلس يعكس شيئا من لطف المؤلف وادبه .